المصـــــدر : اليمامة
التـــاريخ : 11-11-2006 العـــدد : 1931
الصفحـات : 48 المسلسل : 40

المصـــــدر : اليمامة
التـــاريخ : 11-11-2006 العـــدد : 1931
الصفحـات : 48 المسلسل : 40

طيبة أم المولهين

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

هي طيبة أم المساكين، وهي طيبة أم المولهين، ولا أحصي الشعر المجنح من علماء وأدباء غير بدعيين يتشوقون فيها إلى المدينة المنورة.. وطيبة أم المولهين كتابٌ لي شرعتُ في تأليفه منذ أكثر من عشر سنوات؛ فلما وصلت إلى مقارنة ابن حزم بين مكة المكرمة والمدينة، لم يعجبني كثير من كلامه - رحمه الله - لأن الرجحان عندي في هذه اللحظة (وقد يتغيّر اجتهادي بعد زيادة البحث): أن المدينة المنورة أفضل البقاع بالنسبة لساكنيها، وأن مكة المكرمة أفضل البقاع بالنسبة لذاتها؛ وإنما قلت ذلك لأن فضل المدينة المنورة طرأ غيرياً لا ذاتياً بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة، وأنها دار الهجرة والنصرة، وأنها أول دار للخلافة الإسلامية، وأنها مثوى خيار الخلق رضوان الله عليهم.. وعلى رأسهم أفضل الخلق بإطلاق: محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي ما طلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل منه، وأن الإيمان يأرز إليها آخر الزمان كما تأرز الحية إلى جحرها، وأنه جاء الحث على سكناها آخر الزمان، وأنها تنفي خبثها قبل قيام الساعة.. إلى غير ذلك من الفضائل، ومع أن بعض كلام ابن حزم رحمه الله لم يعجبني فلم يجد تخريج الأحاديث التي ذكرها وتوثيقها توثيقاً جيداً نشاطاً ولا فراغاً، وإنني مصمم إن شاء الله على تخصيص وقت لذلك لا أشتغل فيه بغير هذا الموضوع.. على أن السيد حبيب بن محمود رحمه الله تعالى لما علم بذلك نقدني تكاليف الطبع؛ فأصبح إنجاز ذلك ديناً عليّ للخلق وإن كان الباعث في البداية رضا الخالق سبحانه إن شاء الله.. ولقد كنت أيام فراغي أقضي الأشهر الطويلة بعائلتيْ مرات على حسابي، ومرات على حساب السيد حبيب رحمه الله، ومرات على حساب صاحبي السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز، ومقرن بن عبدالعزيز جزاهما الله عني خيراً، ومرات أكثر على حساب ناصر الحطامي جزاه الله عني ألف خير، ومرة واحدة على حساب صديقي الفاضل أبي باسم عبدالله الفايز الشمري جزاه الله عني خيراً.. ولا تزال النية معقودة على أن أقضي بقية حياتي في المدينة مع من خف محمله من أهلي وولدي، وكانت هذه أمنية شيخي أبي زاهد عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى، ولكنه لم يتحقق له ذلك، وقد أوصى بأن يدفن في البقيع في المدينة المنورة؛ فتحققت أمنيته ودفن بها، وأنا كذلك أوصي ذريتي وأهلي بهذا.. على أنني أحسُّ بثقة من ربي أن تكون سكناي بها بحياة مديدة سعيدة تكسب عملاً صالحاً بحول الله وقوته.. وكنت مقيماً بأبها ما يقرب من عام ونصف عام بأهلي على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل؛ فاستأذنته في الرجوع لأقيم بالمدينة المنورة فأقمت بها أشهراً ورجعت على أمل العودة بإقامة دائمة إن شاء الله.. وقلت في استئذاني لسموه:

لولا جوار المصطفى ومقالة ... قد حث فيها المسلمين مخاطبا:
«من يستطع موتاً بطيبة فليمت، ... لم أرض دونك مشرقاً ومغاربا(١)
باب السلام ومنبر في روضة ... من جنة تُلفي نداها صائبا(٢)
وشذا قبا يا ابن الكرام معاهد ... تذكي دفيناً في فؤادي لاهبا
صلى الإله على نبي بالهدى ... يمحو ظلاماً أو يجلي شائبا

وللمدينة المنورة خاصية يلحظها كل زائر، وفي مطلعها السكينة التامة فيها وفي أهلها؛ فلا تسمع كلاماً سافلاً.. وفيها انشراح الصدر، ولا سيما في المسجد النبوي، ومنها البركة في المصاريف، وخفوت نجم المظهرية، وكنت أذبح التيس الصغير، وأدعو له الجمُّ الغفير؛ فيصدق عليه طعام الواحد كافي الاثنين، وليس هذا كما في غيرها من المدن.. ومن الخصوصيات انصراف عامة الشباب إلى دراسة العلم وتدريسه وحفظه ولا سيما الأحاديث النبوية الشريفة.. على أنهم أقل

المصـــــدر : اليمامة
التـــاريخ : 11-11-2006 العـــدد : 1931
الصفحـات : 49 المسلسل : 40

الناس تأليفاً وتحقيقاً داخل المملكة وخارجها.. ويؤديني نزعة صوفية بها، والتصوف لا بأس به ما ظلَّ في باب الزهد والتقشف على منهج الأئمة من أمثال أحمد بن حنبل وبشر الحافي وعبدالله بن المبارك وغيرهم رضي الله عنهم.. وإنما المحذور أمران:

١. الأول عقيدة صوفية كفرية كالحلول والاتحاد، وليس هذا عندهم بحمد الله.. ويدخل في هذا أيضاً دعاء المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ فهذا شرك في الألوهية يلزم عنه شرك في الربوبية.

٢. عقيدة بدعية يدخل فيها التسويغ لقصائد مروِّعة كما في ميمية البوصيري.. يسوِّغونها بتأويلات ليس عليها برهانا التصحيح والترجيح، بل البرهانان ضد منطوق تلك القصائد.. ويدخل في ذلك المولد الذي أحدثه الفاطميون، وإنما يُقبل منه تذكُّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في مناسبات كريمة كالإسراء ويوم بدر بشرح هذه المناسبات وترقيق القلوب بنصوص لا محذور فيها، وهذا شبيه بخطب الجمعة التي يوظفها الخطباء للمناسبات.. ويدخل في ذلك التصوف البدعي التمسك بالمناسبات والحكايات والأحاديث التي لا خطام لها ولا زمام وردُّ الصحيح والمتواتر وقطعي الدلالة بالموضوع والضعيف والمحتمل، وتأويلهن من أجل الأحاديث التي لا تقاومها، والقاعدة الشرعية العقلية ردُّ المتشابه إلى المحكم، والمطلق إلى المقيد، والجمع بين النصوص الثابتة.. إلخ.. وكلُّ تعبُّد لله بعد كمال الدين بدعة شنيعة، والسَّلَفيَّة حقيقة واقعية شرعية حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن كان على ما كان عليه هو وأصحابه رضي الله عنهم، وترضَّى الله عنهم وعن أتباعهم . وهم أهل القرون الممدوحة . بقوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (سورة التوبة ١٠٠)، وهذه عقيدة عدول الأمة وألمتها منذ جيل الصحابة رضي الله عنهم متواترة عنهم بالأسانيد وفي مؤلفات العلماء، ولم

الأمير نايف بن عبدالعزيز

يقوموا بالمولد وهم أشد الناس حباً لرسول الله وأكثر اتِّباعاً، وكل دين مستحدث بعدهم فهو بدعة كهذه القصة عن مؤلف بحار الأنوار، وهذا نصها «وأمَّا شيخنا صاحب بحار الأنوار فقد كان يأمر الناس بأن يكتبوا على أكفان موتاهم اسم أربعين من المؤمنين، وكيفية ذلك أن يكتب كل مؤمن بخطه: فلان بن فلان مؤمن، أو لا ريب ولا شك في إيمانه، كتبه شاهداً فلان بن فلان.. ثم يختمه بخاتمه.. ورأيته في عشر السبعين بعد الألف في مسجد الجمعة في إصفهان، وقد ارتقى على المنبر ليلقي على الناس أنواع العلوم والحكم والمواعظ؛ فأخذ أولاً الإقرار بالإيمان وتوابعه، وقال: أيها الناس هذا اعتقادي، وهذا إيماني، وأريد منكم أن تشهدوا بما سمعتموه مني، وتكتبوا في كفني الشهادة لي بالإيمان.. وكان قد أمر بإحضار كفنه في المسجد فكتب الناس شهادتهم على نحو ما تقدم.

وذكر السيد نعمة الله بشأن هذه القصة (أي قصة طلب المجلسي من إخوانه المؤمنين هذه الشهادة)، وبشأن مستنده في هذا قائلاً: وروى شيخنا الكليني . قدس الله روحه . بإسناده إلى الإمام أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: كان في بني إسرائيل عابد: فأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام أنه مُراءٍ.. قال: ثم إنه مات؛ فلم يشهد جنازته داوود عليه السلام؛ فقام أربعون من بني إسرائيل؛ فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً، وأنت أعلم به منا، فاغفر له.

قال: فلما غسل أتى إليه أربعون غير الأربعين، وقالوا: اللهم إنما نعلم منه إلا خيراً، وأنت أعلم به منا، فاغفر له.. قال: فأوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام: ما منعك أن تصلي عليه ؟.. قال داوود: للذي أخبرتني به.. قال: فأوحى الله إليه أنه قد شهد له قوم؛ فأجزتُ شهادتهم، وغفرت له، وعلمت ما لا يعلمون.. ومن هنا كان شيخنا المعاصر . أدام الله أيامه . قد طلب من إخوانه المؤمنين أن يكتبوا على كفنه منهم بإيمانه.. فكتبوا: هذا لا ريب في إيمانه.. كتبه شاهداً به فلان.. وربما جعلوا تحت الشهادة نَقْشَ خواتيمهم، وكان يأمر الناس بهذا

المصـــــدر : اليمامة
التـــاريخ : 11-11-2006 العـــدد : 1931
الصفحـات : 50 المسلسل : 40

وأمثاله. وهو حسن.. علماً بأن المجلسي رحمه الله قد أورد أحاديث في باب شهادة أربعين للميت، ولم يصرح فيه بكتابة ذلك على الكفن.. وعد الشيخ الحر العاملي من أبواب الدفن: باب استحباب شهادة أربعين أو خمسين للمؤمن بالخير، ولم يصرح بكتابة ذلك على الكفن.. وقال المحدث النوري بعد أن نقل كلام السيد نعمة الله الجزائري: ومن جميع هذه الكلمات يعلم أنه . طاب ثراه . مؤسس هذه السنة السنية المستمرة الباقية إلى الآن في العصابة المهتدية ،(٣).

قال أبو عبدالرحمن: أما تحقيق السند إلى جعفر الصادق رضي الله عنه، ثم ثبوت السند منه إلى داوود عليه السلام: فأمرٌ لا تسألْ عنه !!.. ثم فخروا بسنة سنية عبادية في القرن الحادي عشر !!.. وبعد ذلك نسبة التناقض إلى الله سبحانه وتعالى: فيوحي له بأن فلاناً مُراءٍ، ثم يوحي له بأنه مؤمن؛ لأجل شهادة الخلق وهو علام الغيوب !!.. وواجب على هؤلاء وعلى أهل السنة والجماعة التناصح برفق، وإظهار البرهان من الفريقين، والدعاء بالهداية لكل من الفريقين، وعدم الاحتداد والمشاتمة: فإذا لم تحصل الهداية وجب على الفريقيـــن التعاون والاجتماع على ما اتفقوا عليه، واعتزال مجالس البدعـــة إلا من أراد معرفة حقيقة الحال: فيحضر بمقدار ما يفهم به الوضع حتى لا يقول عن الواقع بغير علم.

وأعظم عمل خالد لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله تعالى - وخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله - أيده الله - على أثره في إتمام المسيرة . توسعة المسجد النبوي توسعة لا مثيل لها في التاريخ، وتيسير أعظم وسائل الراحة والترفيه في هذا المكان الشريف.. والمسجد اليوم يضم مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده؛ إذ كان البقيع خلاءً لقضاء الحاجة، وقبا ونحوها من أعمال المدينة.. ويلي ذلك طباعة المصحف الشريف من ملايين النسخ، وغمْرُ البلاد العربية والإسلامية بملايين النسخ.. وكان يطبع برواية حفص لأنها القراءة التي يقرؤها أهل المشرق، ويطبع برواية ورش لأنها القراءة التي عليها أهل إفريقيا.. وفي عهدها الجديد بأميرها الجديد صاحب السمو الملكي الأمير عبدالعزيز بن ماجد بن عبدالعزيز آل سعود تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله أيده الله: سيظل الاستمرار على صيانة المنجزات العظيمة، ولا يزال الطموح إلى منجزات تُتمِّم المسيرة.. رحم الله موتاهم، ومتع بالصحة أحياءهم، وجعلهم هداة مهتدين، ونصرهم بالإسلام، ونصر الإسلام بهم.. ومما يثلج الصدر أن صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز آل سعود - حفظه الله - أحسن الاختيار جداً بجعل جائزته العالمية للسنة النبوية والدراسات الإسلامية في المدينة المنورة مقراً واجتماعاً واحتفالاً، وقد تؤجت رغبة سموه بأمر سام في ١٤٢٣/٥/٢٩هـ.. وأضاف سموه إلى ذلك مسابقة حفظ الحديث النبوي.. ومنهج الجائزة والمسابقة، وما يحتاجه كل ذلك من إيضاح غطي تغطية إعلامية لا مثيل لها، والبرهان على عموم هذه التغطية وثمرتها التواصل العريض مع العلماء في العالمين العربي والإسلامي، وبابها مفتوح لعلماء المسلمين المغتربين في العالم الأجنبي، ومضمون هذه التغطية يوزع في كل احتفال، وميسور طلبه في أي لحظة.. ولم تكتفِ أمانة الجائزة بهذه التغطية، بل قامت بعمل إيجابي وهو حصر بياناتٍ بخاصة العلماء المسلمين المتخصصين في فرعي الجائزة (السنة النبوية، والدراسات الإسلامية)، ثم أردفت الأمانة مع ذلك مخاطبتهم، والتطلع المستقبلي الدائم لتحديث بياناتهم بعلماء جديدين قد يكونون غابوا عن البال.. وبما أن باعث الجائزة الدعوة إلى الله سبحانه في المدينة المنورة التي نزل فيها القرآن، وَطُبِّقتْ أحكام الشريعة المطهرة: فقد نجم عن كيانها الإداري أعمال دائمة دائبة بالحلقات العلمية للمحاضرات العلمية النافعة والندوات، ونشرت ثمار هذه الحلقات بأشرطة مسموعة وأشرطة مرئية وكتب مطبوعة، وسعت في توزيعها بشكل يقارب جهد التغطية الإعلامية للجائزة.. كما شاركت. وستشارك دائماً إن شاء الله . في معارض الدعوة إلى الله وفي الندوات التي يقيمها غيرها.. وبعد هذا الجهد يحسن طرح هذا السؤال: ما مدى أهمية الجائزة على المستويين المحلي والعالمي ؟.. والجواب ميسور فأهم مدى أنها جنت أول القطوف (وهي قطوف ثقيلة الوزن) من الهدف الباعث للجائزة، وهو ربط الأمة في مملكتنا وفي العالم العربي وفي العالم الإسلامي وفي المغتربين في العالم الأجنبي بفرعي الجائزة بعد تكالب شديد من أعداء الأمة على التشكيك في السنة مع أنهم لا يشككون في بيت شعر نسب إلى المتنبي أو أبو العلاء المعري أو غيرهما.. كما أن الجانب التوثيقي متناً وسنداً استهلك جهد وأعمار أئمة المسلمين وعدولهم في القرون الثلاثة الممدوحة، وكانت قاعدتهم: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)، ولم يحظ دين من الأديان بمثل هذا التوثيق؛ لأن الله لم يضمن لهم حفظ دينهم بقوله تعالى: ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ (سورة المائدة. ٤٤)؛ فوكل حفظه للبشر، وأما الدين الناسخ المهيمن فقد تولى الله بخبره الشرعي حفظه بقوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) سورة الحجر-٩ ثم نفذ الله مشيئته الشرعية بقدره الكوني؛ إذ حبب إلى أئمة المسلمين وعدولهم التفرغ لتوثيقه دراية ورواية؛ فكان ذلك أثمن عندهم من تشييد القصور، وجمع المال، والحبِّ لِبُعدِ الصِّيت حتى وجد العلم الساطع كسطوع الشمس بتمييز الصحيح من الموضوع المكذوب من الضعيف المتوقَّفِ منه، ولم يضع من دين الله شيء؛ فأما القرآن فبنقل التواتر؛ فعلى مدى خمسة عشر قرناً وإلى أن تقوم الساعة لا يستطيع مخلوق إسقاط حرف منه أو إضافة حرف إليه، وقد طبع اليهود منذ خمسة وعشرين عاماً مصحفاً أسقطوا منه كلمة (غير) من قوله تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ (سورة آل عمران.٨٥)؛ فاكتشف هذا التلاعب في حينه، وأحرقت الطبعة.. وأما السنة فمع تمييز صحيحها من سقيمها فلم يضع منها شيء، وقد تكلم الإمام الشافعي في كتابه الرسالة عن هذه الظاهرة بأن العالم النحرير يغيب عنه شيء من السنن، ولكن ما غاب عنه موجود عند غيره، كما أن ما كان موجوداً عنده هو قد لا يكون موجوداً عند غيره، إلا أن السنة كلها محفوظة في صدور العلماء جماعة لا آحاداً، ومحفوظة في الكتب.. ومرت سنوات كاد ينقطع فيها الاضطلاع بعلم الحديث إلا على مستوى أفراد معدودين أو مؤسسات علمية ضعيفة.. وكان القصيمي يومها في كتابه العالم ليس عقلاً يقول: «إن نبوغ محدث هذا العصر أخطر وأشد وقعاً من قنبلة هيروشيما».. فأي غبطة كغبطة صاحب الجائزة والعاملين معه بتجدد حفظ الحديث في كل عام.. حتى الذين لم ينالوا الجائزة نالوا حظاً مما حفظوه من السنة وإن قصروا عن شرط الجائزة.. ثم هذا الكم الهائل من البحوث . الفائزة بالجائزة وغير الفائزة . تعبير دقيق عن عناية جملة من العلماء بالبحث في فرعي الجائزة، وهي نسبة تتجدد وتتزايد في كل عام.. أليس في هذا منذ الآن إلى المدى الأبعد إيقاظ لعقول الجمهرة من علماء المسلمين وناشئتهم، وتحريك لجهدهم في فرعي الجائزة تحريكاً ظهر في الواقع.. أي كما يقول الفلاسفة: وجود بالفعل لا بالقوة.. يريدون بالقوة الملكة الكامنة.. والسنة المطهرة التي هي ثاني مصدر للتشريع والدراسات الإسلامية التي تستثمر عقول وجهد المسلمين في حسن الاستفادة من مصادر التشريع عقيدة وسلوكاً وفقهاً: ستضيف على المدى الأبعد تضييق نطاق الخلاف بين علماء المسلمين، وستجرهم إلى منهج المحدثين الذين يجرُّون الناس إلى الجنة بالسلاسل؛ حيث يربطونهم بالنص، ويبعدونهم من شحناء العقول والتفلسف.. وإذا استثنيت المجال المحلي فإن عالمينا العربي والإسلامي نُكب بأيديولوجيات أبعدتهم عن دينهم أكيالاً لا خطوات، وجهد الجائزة مع جهود أخرى أكثرها بحمد الله منبعه محلي ستجعل قريباً إن شاء الله جماهير في العالمين المذكورين متحمسة لدينها عن علم ووعي.. أما مدى الأهمية في العالمين من ناحية الشهرة الإعلامية فهذا ليس على بال صاحب الجائزة ولا العاملين معه؛ لأن العمل دعوة إلهية لا دعاية نشرية إعلانية.. ولما بُلي عالمنا العربي والإسلامي بتحزبات متأسلمة بعضها شطَّ على الدين سلوكاً وفكراً، وبعضها قصَّر تقصير العامي كجماعة التبليغ الذين يبيحون الوعظ والتوجيه لمن حفظ بضع آيات وبضعة أحاديث، ويُحدِّثون بالترغيب، ويتركون الترهيب: كان مثلُ هذا العمل الحصنَ المنيعَ للمسلمين، والأداةَ الإيجابية في تلاشي واضمحلال ذلك الوشب، كما أنه استصلاح للفكر البشري بالدراسات الإسلامية، وتوعيةً للعقل المسلم بمضامين السنة المطهرة وحجتيها.. وذانك بحمد الله هما فرعا الجائزة؛ ليحصل الفقه في الدين عن علم مؤصَّل يجمع بين النصوص، ويستنبط منها مجتمعة؛ فالحمد لله الذي وفق صاحب الجائزة لهذه الأهداف النبيلة، والله المستعان.

وكتبه لكم
أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
- عفا الله عنه -

---

(١) الحديث صحيح.
(٢) تتنزل الرحمات كصيِّب من المطر.
(٣) بحار الأنوار ١/٢٧ . ٢٨.